

لوثر والإصلاح

المحاضرة ٣: اختبار البرج

أ.ر. سي. سرول

سَنُكْمِلُ الْآنَ فِي دِرَاسَتِنَا لِلوُثَرِ وَإِصْلَاحِ الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ فِي بَدَايَةِ هَذِهِ الْمُحَاضِرَاتِ ذَكَرْتُ أَنَّهُ فِي سَنَوَاتِ شَبَابِ لُوثَرٍ، كَانَ يَمِيلُ لِلْمُرُورِ بِأُزْمَةٍ حَادَّةٍ كُلَّ ٥ سَنَوَاتٍ. مَرَّ فِي عَامِ ١٥٠٥ بِتَجْرِبَةِ الصَّاعِقَةِ الَّتِي أَرْسَلَتْهُ إِلَى الدَّيْرِ. وَقَدْ تَكَلَّمْنَا الْمَرَّةَ الْمَاضِيَةَ عَن عَامِ ١٥١٠ عِنْدَمَا مَرَّ بِتَجْرِبَةِ خَيْبَةِ الْأَمَلِ فِي خِلَالِ رِحْلَتِهِ وَحَجَّهِ إِلَى رُومَا. لَكِن، رُبَّمَا أَهَمُّ أُزْمَةٍ فِي كُلِّ حَيَاتِهِ، ذَلِكَ الْمَشْهُدُ الَّذِي حَدَدَهُ كَرَجُلٍ وَلَاهُوتِيٍّ، وَمُصْلِحٍ وَمَسِيحِيٍّ، حَدَثَ فِي عَامِ ١٥١٥ فِي مَا يُدْعَى تَجْرِبَةَ الْبُرْجِ.

لَكِن قَبْلَ أَنْ نَتَكَلَّمَ عَن تَجْرِبَةِ الْبُرْجِ، نُرِيدُ أَنْ نَنْقُلَ لُوثَرَ مِنْ إِيرْفُورْتِ إِلَى وَيْتِنْبُرْغِ. اسْمَحُوا لِي أَنْ أَبْدَأَ بِقَوْلِ إِنَّهُ بَعْدَ فِتْرَةٍ قَصِيرَةٍ مِنْ عَوْدَتِهِ مِنْ تَجْرِبَتِهِ فِي رُومَا، دُعِيَ لِلانْتِقَالِ مِنْ إِيرْفُورْتِ إِلَى دَيْرِ الرَّهْبَنَةِ الْأَوْغُسْطِينِيَّةِ، فِي قَرْيَةِ وَيْتِنْبُرْغِ. كَانَتْ إِيرْفُورْتُ مَدِينَةً كُبْرَى فِي أَلْمَانِيَا، وَفِيهَا جَامِعَةٌ كُبْرَى، بَيْنَمَا كَانَتْ وَيْتِنْبُرْغُ مَجْرَدَ قَرْيَةٍ صَغِيرَةٍ يَقْطُنُهَا حَوَالِي ٢٠٠٠ شَخْصٍ. وَحَجْمُ الْمَدِينَةِ أَقَلُّ مِنْ ١.٦ كِيلُومِترًا. اسْمُ وَيْتِنْبُرْغِ يَعْنِي "الثَّلَاةُ الْبَيْضَاءُ" أَوْ "الْجَبَلُ الصَّغِيرُ الْأَبْيَضُ"، وَمَوْقِعُهَا عَلَى امْتِدَادِ الرَّمَالِ الْبَيْضَاءِ، وَيَحُدُّهَا نَهْرُ الْبِه. أَهْمِيَّةُ وَيْتِنْبُرْغِ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ مِنَ التَّارِيخِ، هُوَ أَنَّ تِلْكَ الْقَرْيَةَ أَسَّسَهَا رَجُلٌ يُدْعَى فِرِيدِرِيكُ الْحَكِيمِ، أَوْ فِرِيدِرِيكُ نَاحِبِ سَاكْسُونِيَا. إِنْ لَمْ تَأْلَفُوا اسْمَ فِرِيدِرِيكِ الْحَكِيمِ، لَا بُدَّ مِنْ أَنْ أَقُولَ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ أَنَّهُ كَانَ أَحَدَ أَهَمِّ مَنْ لَعِبُوا دَوْرًا فِي الإِصْلَاحِ الْبُرُوتِسْتَانِيِّ وَكُلِّ هَذَا، بِشَكْلِ أَسَاسِيٍّ، عَن غَيْرِ قَصْدٍ.

كَانَ حُلْمُ فِرِيدِرِيكِ أَنْ يُنْشِئَ مَرْكَزًا ثَقَافِيًّا وَفِكْرِيًّا فِي وَيْتِنْبُرْغِ، يُنَافِسُ الْجَامِعَةَ الَّتِي فِي هَايْدِلِبَرْغِ وَأَعْظَمَ مَرَائِزِ الْفِكْرِ فِي أَلْمَانِيَا. مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ، بَحَثَ كُلَّ الْقُرَى الْأَلْمَانِيَّةِ، وَجَالَ فِي الْكَثِيرِ مِنَ الْأَدِيرَةِ طَالِبًا أَنْ يُرْشِحُوا أَفْضَلَ عُلَمَائِهِمُ الشَّبَابِ لِلانْضِمَامِ إِلَى جَامِعَتِهِ الْجَدِيدَةِ فِي وَيْتِنْبُرْغِ. وَتَمَكَّنَ مِنَ الْحُصُولِ عَلَى خِدْمَاتِ ٣ عُلَمَاءِ بَارِعِينَ، وَأَحَدُهُمْ كَانَ مَارْتِنُ لُوثَرُ. لَمْ يَكُنْ لُوثَرُ قَدْ حَصَلَ عَلَى شَهَادَةِ الدُّكْتُورَاةِ بَعْدُ. كَانَ قَدْ اسْتَحْصَلَ عَلَى الْمَاجِسْتِيرِ فِي دِرَاسَاتِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، وَاسْتُدْعِيَ إِلَى الْمَدِينَةِ لِيَكُونَ أَسْتَاذَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ فِي الْكَلِّيَّةِ هُنَاكَ فِي وَيْتِنْبُرْغِ.

بِالإِضَافَةِ إِلَى تَأْسِيسِ الْجَامِعَةِ هُنَاكَ، أَرَادَ فِرِيدِرِيكُ أَنْ يُنْشِئَ أَفْضَلَ مَدَّخِرٍ فِي كُلِّ أَلْمَانِيَا. كَانَ حُلْمُهُ أَنْ يَجْعَلَ وَيْتِنْبُرْغِ، رُومَا الْأَلْمَانِيَّةِ. لِذَا، طِيلَةَ فِتْرَةِ ١٠ سَنَوَاتٍ أَوْ مَا يُقَارِبُهَا جَالَ بَحْثًا عَن مُخْتَلِفِ الْآثَارِ لِتَجْمِيعِهَا، لِيَضُمَّهَا إِلَى الْكَنِيسَةِ فِي وَيْتِنْبُرْغِ فَتَجْتَذِبَ الْحُجَّاجَ مِنْ كُلِّ أَنْحَاءِ أُرُوبَا لِكَيْ يَقُومُوا بِحَجِّهِمْ إِلَى وَيْتِنْبُرْغِ، بِسَبَبِ الْخِلَاصِ مِنَ الْمَطْهَرِ الَّذِي يَرِافِقُ رِحْلَةَ مُمَاتِلَةً. تَمَكَّنَ مِنْ جَمْعِ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْآثَارِ، أَكْثَرَ مِنْ ١٩٠٠٠ أَثَرٍ، تُعَادِلُ قِيَمَةَ مَجْمُوعِ

خلاصها كلها، إن بحثتم في كل منها خلال فترة حجكم، يصل مجموعها إلى ١,٩٠٢,٢٠٢ سنة و٧ أشهر تقريباً من الوقت تُعتَقون منه في المظهر. لذا كان حلمه بتأسيس مذخرٍ ضخمٍ هناك في ويتنبرغ قد تحقق.

من بين الآثار التي تمكّن من جمعها: قسّة من مذود يسوع، وشعرة من لحية يسوع، وقطعة من الصليب، وقطعة من حجرٍ عن جبل الصعود، وحتى غصنٍ من عليقة موسى المُستعلّة، كانت تلك مجموعةً مُميّزةً. كان فريديريك الحكيم يدعى ناخب ساكسونيا، لأنه كان أحد عدّة رجالٍ في أوروبا الذين كان لهم حقّ بالتصويت في اختيار الإمبراطور الروماني المقدّس، ذلك الذي سيترأس الإمبراطورية الرومانية المقدّسة، التي يقول عنها العلماء إنّها لم تكن لا مقدّسة ولا رومانية، ولا إمبراطوريةً حتى.

في الواقع، في عام ١٥١٨ - كما أُظنّ أنّها كانت - تُوفي إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدّسة ماكسيميليان، وترك عرش الإمبراطور شاغراً. كان هناك ٣ مرشّحين أساسيين لخلافة ماكسيميليان. في المُقدّمة اثنان منهما والثالث في الخلفية. في المُقدّمة كان كلٌّ من فرنسيس، وهو ملك فرنسا حينذاك، وتشارلز، الذي كان ملك إسبانيا الذي لم يتكلم الإسبانية، وكان يُعتبر غيبياً نوعاً ما حتى من قبل أبناء جيله. بينما المرشّح الثالث الذي كان يُعاني للحاق بفرانسيس وتشارلز، كان ملك إنجلترا، هنري الثامن. تعقّدت الحبكة بينما استمرّ السباق، ولم يرد بابا روما في ذلك الوقت، ليو الخامس، لم يرد بشدة أن يصبح لا فرنسيس ولا تشارلز إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدّسة.

لذا، حاول أن يضع على فريديريك ليشارك في السباق نحو العرش ويترشّح لمنصب إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدّسة. من أجل ذلك، كرم ليو الخامس فريديريك من خلال منحه أعظم شرفٍ يستطيع البابا أن يمنحه لحاكمٍ علمانيٍّ، وهو رتبة الوردة الذهبية. قدّم هذا الشرف لفريديريك على أمل أن يحثّ فريديريك ليلسعى إلى مركز إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدّسة، إلا أن فريديريك، من أحد أسباب دعوته بالحكيم، هو أنّه رفض الدعوة، ولم يهتمّ بالترشّح لمنصب الإمبراطور. وفي الواقع، كان من أهمّ من صوّتوا لوضع تشارلز على عرش الإمبراطورية الرومانية المقدّسة.

من اللافت أيضاً بالنسبة إلى فريديريك، بالإضافة إلى أنّه من أحضر لوتر إلى ويتنبرغ حيث بدأ الإصلاح بكامله، فبسبب قوته السياسية في أوروبا تمكّن فريديريك من أن يلعب دور حامي لوتر في خلال تلك السنوات المهمّة. قال المؤرّخون إنّهُ لولا تأييد فريديريك الحكيم، لكان لوتر اضطيد وأُعدم. على الرّغم من أن فريديريك حافظ على ولائه للكنيسة الكاثوليكية، إلا أنّه حافظ أيضاً على ولائه لجامعته، وأراد أن يتأكّد أن لوتر لا يضطهد ظلماً ولا يحاكم ويُعدم. لذا، دافع عنه طيلة سنواتٍ كثيرة جداً، على الرّغم من أنّه قيل بسخرية إن لوتر وفريديريك لم يتحاورا أكثر من ٣ مرّاتٍ في كل تاريخ علاقتهما.

لَكِن عَلَى كُلِّ حَالٍ، عِنْدَمَا أُحْضِرَ لُوْثِرَ إِلَى وَيْتِنْبُرْغِ كَأَسْتَاذٍ لِلْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، بَدَأَ مُحَاضَرَاتِهِ فِي عَامِ ١٥١٣ وَحَاضَرَ مُطَوَّلًا عَنِ سَفَرِ الْمَزَامِيرِ. أَحَدُ الْأُمُورِ الَّتِي غَالِبًا مَا نَتَجَاهَلُهَا عَنْ لُوْثِرٍ، هِيَ أَنَّ لُوْثَرَ كَانَ أُسْتَاذًا فِي اللُّغَةِ، وَكَانَ مُفَسِّرًا مُذْهِلًا لِلْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ. فِي الْوَاقِعِ، طَرِيقَتُهُ فِي تَفْسِيرِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، بِخَاصَّةٍ بَعْدَ تَطَوُّرِهَا، غَيَّرَتْ مَفْهُومَ تَفْسِيرِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ بِأَكْمَلِهِ مِنَ الْعُصُورِ الْوَسْطَى لِئُمْسِي نَظْرَةً عَصْرِيَّةً نَحْوَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ. فِي الْعُصُورِ الْوَسْطَى، أَفْضَلُ طَرِيقِ تَفْسِيرِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ كَانَتْ مِنْ خِلَالِ اسْتِخْدَامِ مَا يُدْعَى "الْكُوَادِرِيغَا". الْكُوَادِرِيغَا كَانَتْ طَرِيقَةً رُبَاعِيَّةً لِتَفْسِيرِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ؛ أَنْ تَبْحَثُوا أَوَّلًا فِي الْمَعْنَى الْحَرْفِيَّةِ لِلنَّصِّ، وَمِنْ ثَمَّ تَحْدُونِ الْمَعْنَى الْأَخْلَاقِيَّةَ فِي النَّصِّ، تَبْحَثُونَ عَنِ الْمَعْنَى الرَّمَزِيَّةِ لِلنَّصِّ، وَبِالْتَّهَيَّةِ الْمَعْنَى الْمَجَازِيَّةِ لِلنَّصِّ. وَقَادَ هَذَا إِلَى تَحْمِينَاتٍ غَرِيبَةٍ وَتَفْسِيرَاتٍ خَيَالِيَّةٍ لِلْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، لِدَرَجَةٍ أَنَّ لُوْثَرَ قَالَ إِنَّهُ فِي ظِلِّ ذَلِكَ النِّظَامِ أَمْسَى الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ أَنْفًا مُشْمَعًا، بِاسْتِطَاعَةِ أَيِّ شَخْصٍ أَنْ يُشَكِّلَهُ وَيُشَوِّهَهُ لِيَجْعَلَهُ يُنَاسِبُ أَيَّ نَظَرِيَّةٍ يُرِيدُهَا أَنْ تَنْبَعَ مِنَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ.

وَصَلَ لُوْثِرُ تَدْرِيجِيًّا إِلَى مَوْقِفٍ مَفَادُهُ أَنَّ الطَّرِيقَةَ السَّلِيمَةَ لِتَفْسِيرِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ هِيَ مِنْ خِلَالِ إِجَادِ مَا دَعَاهُ "سِينْسُوسَ لِيْتِرَالِيْسَ". لِئَلْقَى نَظْرَةً عَلَى هَذَا "سِينْسُوسَ لِيْتِرَالِيْسَ" الَّذِي يُتْرَجَمُ بِبَسَاطَةٍ "الْمَعْنَى الْحَرْفِيَّةَ لِلْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ". يَسْأَلُنِي بَعْضُ النَّاسِ مِنْ وَقْتٍ إِلَى آخَرَ سُؤَالَ إِنْ كُنْتُ أَفَسِّرُ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ حَرْفِيًّا. لَكِنَّهُمْ عَادَةً مَا لَا يَسْأَلُونَ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ، عَادَةً مَا يَقُومُونَ بِهَذَا بِشَكْلِ سَلْبِيٍّ قَائِلِينَ "أَنْتَ لَا تُفَسِّرُ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ حَرْفِيًّا، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟" وَعِنْدَمَا يَقُولُ لِي أَيُّ شَخْصٍ "أَنْتَ لَا تُفَسِّرُ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ حَرْفِيًّا، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟" لَا أُجِيبُ بِالْإِجَابِ أَبَدًا، وَلَا أُجِيبُ بِالنَّفْيِ أَبَدًا، بَلْ أُجِيبُ عَنِ السُّؤَالَ دَائِمًا بِالطَّرِيقَةِ عَيْنِهَا. إِنْ سَأَلَنِي أَحَدٌ "أَنْتَ لَا تُفَسِّرُ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ حَرْفِيًّا، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟" دَائِمًا مَا يَكُونُ جَوَابِي "بِالطَّبَعِ. يَا لَلسُّؤَالَ! هَلْ مِنْ طَرِيقَةٍ صَحِيحَةٍ أُخْرَى لِتَفْسِيرِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ سِوَى تَفْسِيرِهِ حَرْفِيًّا؟"

لَكِنِّي أَفْهَمُ سَبَبَ طَرَحِ النَّاسِ لِهَذَا السُّؤَالَ. لَا يَقْصِدُونَ مَا قَصَدَهُ لُوْثِرُ بِالترجمة المعنوية، أَوْ مَا أَعْنِيهِ أَنَا. مَا قَصَدَهُ لُوْثِرُ بِكَلَامِهِ عَنِ "سِينْسُوسَ لِيْتِرَالِيْسَ"، هُوَ أَنَّهُ يُفْتَرَضُ بِنَا أَنْ نُفَسِّرَ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ وَفَقَ طَرِيقَةَ كِتَابَتِهِ. إِنْ كَانَ سَرْدًا تَارِيخِيًّا، نُفَسِّرُونَهُ وَفَقَ قَوَائِنِ السَّرْدِ التَّارِيخِيِّ، إِنْ كَانَ شِعْرًا، نُفَسِّرُونَهُ وَفَقَ قَوَائِنِ الشَّعْرِ، إِنْ كَانَ تَعْلِيمِيًّا نُفَسِّرُونَهُ وَفَقَ تِلْكَ الشَّرَائِعَ وَإِلَى مَا هُنَالِكَ. لَكِن لَيْسَ هُنَاكَ مَا يُدْعَى رُوحَ قُدْسٍ يُؤَنَانِيًّا فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ. الْأَسْمُ هُوَ اسْمٌ، وَالْفِعْلُ هُوَ فِعْلٌ. وَيُفْتَرَضُ بِكُمْ أَنْ تُعَامِلُوا الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ عَلَى هَذَا الْأَسَاسِ، كَمَا لَوْ أَنَّهُ أَيُّ كِتَابٍ آخَرَ. بِالطَّبَعِ، هُوَ لَا يُشَابِهُ أَيُّ كِتَابٍ آخَرَ لِأَنَّهُ وَحْدَهُ كَلِمَةُ اللَّهِ، لَكِن عَلَى الرَّعْمِ مِنْ ذَلِكَ بَنَى لُوْثِرُ سِيَاجًا حَوْلَ جَمِيعِ مُحَاوَلَاتِ التَّفْسِيرِ الْحَرْفِيَّةِ الْمُرُوحِنَةِ لِكَلِمَةِ اللَّهِ. أَرَادَ أَنْ يَبْحَثَ عَنِ الْمَعْنَى الْبَسِيطِ وَالتَّفْسِيرِ الْبَسِيطِ لِلْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ لِكِي نَفْهَمَ كَلِمَةَ اللَّهِ كَمَا مُنِحَتْ فِي الْأَصْلِ وَكُتِبَتْ.

لِذَا، كَانَ مَبْدَأُ تَفْسِيرِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، يَتَطَوَّرُ فِي خِلَالِ سِنِينَ تَعْلِيمِهِ فِي وَبِتَنْبُرُغ. وَقَدْ بَدَأَ هَذَا فِي شَرْحِ مُطَوَّلٍ عَنِ سَفْرِ الْمَزَامِيرِ. عَامَ ١٥١٥، هُوَ الْعَامُ الَّذِي قُلْتُ إِنَّهُ تَعَرَّضَ فِيهِ إِلَى أَهَمِّ أَرْمَاتِهِ، رُبَّمَا فِي كُلِّ حَيَاتِهِ، فِي مَا يُدْعَى تَجْرِبَةِ الْبُرْجِ، وَقَدْ بَدَأَ هَذَا عِنْدَمَا مُنِحَ مُهِمَّةَ الْوَعْظِ مِنْ رِسَالَةِ رُومِيَّةٍ. فِي بَدَايَةِ مُحَاضَرَاتِهِ، بَيْنَمَا كَانَ يَقْرَأُ الْأَصْحَاحَ الْأَوَّلَ مِنْ رِسَالَةِ رُومِيَّةٍ وَوَصَلَ إِلَى رُومِيَّةٍ ١: ١٦، قَرَأَ الْكَلِمَاتِ الثَّلَاثِيَّةَ "لَأَنِّي لَسْتُ أُسْتَجِي بِإِنْجِيلِ الْمَسِيحِ، لِأَنَّهُ قُوَّةُ اللَّهِ لِلخَّلَاصِ لِكُلِّ مَنْ يُؤْمِنُ: لِلْيَهُودِيِّيِّ أَوَّلًا ثُمَّ لِلْيُونَانِيِّيِّ". وَمِنْ ثَمَّ، فِي الْآيَةِ ١٧، الَّتِي يَدْعُوهَا مُعْظَمُ عُلَمَاءِ اللَّاهُوتِ الْآيَةَ الَّتِي تُلَخِّصُ كُلَّ رِسَالَةِ رُومِيَّةٍ، يَكْتُبُ بُولُسُ الثَّلَاثِي "لَأَن فِيهِ (أَيُّ فِي الْإِنْجِيلِ) مُعْلَنٌ بِرُّ اللَّهِ بِإِيْمَانٍ، لِإِيْمَانٍ، كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: أَمَّا الْبَارُّ فَبِالْإِيْمَانِ يَحْيَا".

عِنْدَمَا اِطَّلَعَ لُوتَرٌ عَلَى ذَلِكَ النَّصِّ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى وَبَدَأَ يَقْرَأُ عِبَارَاتِ لُومْبَارْدِ وَالْمُعَلِّقِينَ الْآخَرِينَ مِنَ الْعُصُورِ الْوَسْطَى، كَانَ يُصَارِعُ مَعَ مَبْدَأٍ فِي الْآيَةِ ١٧ وَجَدَهُ شَخْصِيًّا بَغِيضًا، خَاصَّةً أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تُعَلِّمُ عَنِ الْمَوْضُوعِ الَّذِي يُرْعِبُ لُوتَرَ أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ مَوْضُوعٍ آخَرَ، أَسَاسًا مَوْضُوعُ بَرِّ اللَّهِ. وَقَدْ عَمِلَ جَاهِدًا فِي الدَّيْرِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُخَلِّصَ صَمِيرَهُ، وَسَعَى بِجِدِّ فِي زُهْدِهِ وَفِي حَاجِهِ وَاعْتِرَافِهِ وَكُلِّ هَذَا، إِذْ كَانَ طَيْفٌ إِلَهِيٌّ قُدُّوسٌ يُلَاحِظُهُ، وَكَانَ لُوتَرٌ يَعْلَمُ أَنَّهُ إِنْ دَانَ لُوتَرٌ وَفَقَّ مَعَايِيرَ بَرِّ اللَّهِ، سَيَهْلِكُ لُوتَرٌ بِالتَّأَكِيدِ. كَانَ يُدْرِكُ أَيْضًا أَنَّهُ مَهْمَا حَاوَلَ جَاهِدًا وَمَهْمَا فَعَلَ، مَا كَانَ لِيَتِمَّكَنَ مِنْ إِرْضَاءِ مُتَطَلِّبَاتِ عَدَالَةِ اللَّهِ أَوْ بَرِّ اللَّهِ، لِكَيْ يَتِمَّكَنَ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى السَّمَاءِ.

الْحَاجِزُ الْأَسَاسِيُّ الَّذِي كَانَ يَحُولُ بَيْنَ لُوتَرَ وَإِلَهِهِ كَانَ بَرِّ اللَّهِ. فَهَمَّ لُوتَرٌ فِي أَعْمَاقِ نَفْسِهِ الْهُوَّةَ الْمَوْجُودَةَ بَيْنَ بَرِّ اللَّهِ وَبَيْنَ إِثْمِ الْخَاطِي، وَلَمْ يَرِ لُوتَرٌ طَرِيقَةً لِسَدِّ الثَّغْرَةِ. لَكِنْ بَيْنَمَا كَانَ يَقْرَأُ هَذَا النَّصِّ، وَيَدْرُسُ هَذَا النَّصِّ وَيُخَضِّرُ مُحَاضَرَاتِهِ، وَصَلَ إِلَى فَهْمٍ جَدِيدٍ تَمَامًا، وَجَذْرِيًّا لِمَا قَالَهُ بُولُسُ فِي رُومِيَّةِ الْأَصْحَاحِ ١ وَالْآيَةِ ١٧ إِذْ قَالَ "لَأَن فِيهِ (أَيُّ فِي الْإِنْجِيلِ) مُعْلَنٌ بِرُّ اللَّهِ بِإِيْمَانٍ، لِإِيْمَانٍ، كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: أَمَّا الْبَارُّ فَبِالْإِيْمَانِ يَحْيَا"، وَهِيَ آيَةٌ مَأْخُودَةٌ مِنْ سَفْرِ حَبَقُوقِ فِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ، وَتَرِدُ ٣ مَرَّاتٍ فِي الْعَهْدِ الْجَدِيدِ. تَوَقَّفَ لُوتَرٌ تَمَامًا، وَقَالَ "مَاذَا يَقْصِدُ بِكَلَامِهِ عَنِ هَذَا الْبَرِّ الَّذِي هُوَ بِالْإِيْمَانِ، بِإِيْمَانٍ لِإِيْمَانٍ؟ مَا الْمَقْصُودُ بِأَنَّ الْبَارَّ بِالْإِيْمَانِ يَحْيَا؟" وَهِيَ، كَمَا قُلْتُ، الْآيَةُ الْمِحْوَرِيَّةُ لِكُلِّ عَرْضِ بُولُسِ لِلْإِنْجِيلِ الَّذِي يَقُومُ بِهِ فِي رِسَالَةِ رُومِيَّةٍ.

وَإِذْ أَدْرَكَ لُوتَرٌ هَذَا الْإِعْلَانَ، بَدَأَ يَفْهَمُ أَنَّ بُولُسَ كَانَ يَتَكَلَّمُ عَنِ بَرِّ يَجْعَلُهُ اللَّهُ فِي نِعْمَتِهِ مُتَاحًا لِأُولَئِكَ الَّذِينَ يَقْبَلُونَهُ فَحَسْبُ، وَلَيْسَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَحْفَقُونَهُ بِالْفِعْلِ، أُولَئِكَ الَّذِينَ يَقْبَلُونَهُ بِالْإِيْمَانِ، وَمِنْ خِلَالِهِ بِإِمْكَانِ الْمَرْءِ أَنْ يَتَصَالَحَ مَعَ إِلَهٍ بَارٍّ وَقُدُّوسٍ. كَانَتْ تَجْرِي هُنَا خُدْعَةٌ لُغَوِيَّةٌ أَيْضًا، وَكَانَتْ الثَّلَاثِيَّةُ: أَنَّ الْكَلِمَةَ اللَّاتِينِيَّةَ لِلتَّبْرِيرِ الَّتِي كَانَتْ تُسْتَعْدَمُ فِي تِلْكَ الْمُرْجَلَةِ مِنْ تَارِيخِ الْكَنِيسَةِ، وَهِيَ الْكَلِمَةُ الَّتِي نَسْتَقِي مِنْهَا كَلِمَةَ التَّبْرِيرِ الْإِنْجِيلِيَّةَ، هِيَ الْكَلِمَةُ اللَّاتِينِيَّةُ "جُوسْتِينِيَّكَاري"، وَهِيَ مَأْخُودَةٌ مِنْ نِظَامِ الْقَضَاءِ الرُّومَانِيِّ. وَكَلِمَةُ "جُوسْتِينِيَّكَاري" مُؤَلَّفَةٌ مِنْ كَلِمَةِ

"جوستوس"، وهي العدالة أو البر، والفعل في صيغته الأساسية "فيكاري"، ومعناه "جعل المرء". لذا فهم الآباء اللاتينيون عقيدة التبرير على أنها ما يحدث من خلال أسرار الكنيسة وما إلى هناك من أمور عندما يستخديمها الله لجعل الأشخاص الخطاة أبرارًا.

لكن لوثر كان ينظر الآن إلى الكلمة اليونانية الواردة في العهد الجديد وليس إلى الكلمة اللاتينية، كلمة "دياكايوسوني"، التي لم تعن جعل المرء بارًا، بل بالحري "أن يُعتبر بارًا، أن يُحسب بارًا، وأن يُعلن بارًا". وكانت تلك لحظة إدراكٍ للوثر. ففكر "أتعنون أن بولس لم يكن يتكلم هنا عن بر الله نفسه، بل البر الذي يمنحنا إياه الله مجانًا بنعمته، للناس الذين ليس فيهم بر في ذواتهم؟" وقد تأكد من هذا المعنى من خلال قراءة مقال لأوغسطينوس عن الحرف والروح، علق فيه أوغسطينوس قائلاً إنه في رسالة رومية، لم يكن بولس يتكلم عن بر الله، بل عن البر المتوافر للمؤمنين بالإيمان. لذا قال لوثر "انتظر. أتقصد أن البر الذي سأخلص فيه ليس برّي الخاص؟" بل هو ما دعاه "جوستيسيا أليوم"، وهو البر الأجنبي، البر الذي ينتمي بالأساس لشخص آخر. هو بر "إكسترا نوس"، خارج عنا، وهو بالتحديد بر المسيح.

وقال لوثر "عندما اكتشفت هذا وُلدت مجددًا بالروح القدس وانفتحت أبواب الفردوس وعبرتها". ليس هناك من طريقة لفهم تشبث لوثر ورفضه للمساومة في عقيدة التبرير بالإيمان وحده، بعيدًا عن اختبار الولادة الثانية الذي غير حياته. عندما للمرة الأولى في حياته فهم الإنجيل، ومعنى أن يخلص بفضل بر شخص آخر.

الدكتور آر. سي. سبرول هو مؤسس هيئة خدمات ليجونير، وكان أحد رعاة كنيسة القديس أندرو (St. Andrews Chapel) في مدينة سانفورد بولاية فلوريدا، كما كان أول رئيس لكلية الكتاب المقدس للإصلاح (Reformation Bible College). وهو مؤلف أكثر من مائة كتاب، بما في ذلك "كلنا لاهوتيون" (Everyone's A Theologian).